شرح كشف الشبهات

الدرس ٩ وهو الأخير

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله؛ أما بعد ...

معنا اليوم آخر درس من دروس شرح كشف الشبهات وهو الدرس التاسع وبه نختم إن شاء الله.

هنا شبهة جديدة يذكرها المؤلف رحمه الله من شبهات أهل التصوف، والذين يستغيثون بالأموات، ويعبدونهم من دون الله، ويتقربون إليهم بأنواع القرب؛ فهذه الشبهة الآن في موضوع الاستغاثة بالأموات؛ ما هي هذه الشبهة التي يستدلون بها على جواز الاستغاثة بالأموات، وأن ذلك لا يعتبر شركاً كما يزعمون؟

قال الشيخ رحمه الله: **(ولهمْ شُبْهَةٌ أُخرى؛ وهي قِصَّةُ إبراهيم عليه السلام لَمَّا أُلْقِيَ في النَّارِ، اعْتَرَضَ لهُ جبريلُ في الهواءِ؛ فقال له: أَلَكَ حاجةٌ؟ فقال إبراهيمُ: أمَّا إليْكَ فلا، قالوا: فلو كانت الاسْتِغاثَةُ بجبريلَ شِرْكاً؛ لَمْ يَعْرِضْها على إبراهيم)**

هذه هي شبهتهم، والقصة أولاً وقبل كل شيء لا تصح أبداً، ليس لها إسنادٌ صحيح مطلقاً، القصة غير ثابتة أخرجها الطبري في تفسيره وذكرها أيضاً البغوي في تفسيره، يذكرونها عند قول الله تبارك وتعالى: {قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ}[1]، وكما قلنا: ذكرها الطبري والبغوي وبعض المفسرين الآخرين، وذكرها أيضاً أبو نعيم في "حلية الأولياء"، والبغوي في "شعب الإيمان"، فهذه القصة- كما ذكرنا لكم- لا تثبت، لا يوجد لها إسناد صحيح، وهي مروية عن أكثر من واحد من التابعين؛ يرونها عن

١- [الأنبياء: ٦٩]

إبراهيم مباشرةً، أو عن بعض أصحابهم؛ فلا تصح، وللشيخ الألباني رحمه الله كلام عليها في "الضعيفة"[1]، من أراده فليرجع إليه.

قال الشيخ مُجيباً عن هذه الشبهة: **(أَنَّ هذا مِنْ جِنْسِ الشُّبْهَةِ الأُولى)**

يعني نفس الشبهة التي تقدمت معنا في السابق، وذكرنا أنَّ هذه الشبهة ناتجة عن أنهم لم يُفرِّقوا بين الاستغاثة الجائزة والاستغاثة الشركية، هذه الاستغاثة التي ذكروها لإبراهيم عليه السلام حين عرَض عليه جبريل عليه السلام الإغاثة؛ هذه ليست من الاستغاثة المحرمة الممنوعة أصلاً- هذا لو ثبتت القصة؛ يعني على التسليم بثبوتها-؛ هذه استغاثة بحيٍّ حاضر قادر على الإغاثة؛ فلا إشكال فيها، وليست هي من الاستغاثة الممنوعة.

قال: **(فإنَّ جِبْرِيلَ عَرَضَ عليه أَنْ يَنْفَعَهُ بأَمْرٍ يَقْدِرُ عليهِ؛ فإنَّه كما قال الله تعالى فيه: {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى}[2]، فلو أُذِنَ له أَنْ يأْخُذَ نارَ إبراهيمَ وما حَولها مِنَ الأرضِ والجبالِ ويُلْقيها في المَشْرِقِ أو المَغْرِبِ؛ لَفَعَلَ)**

يعني كان قادراً على أن يفعل هذا الشيء .

قال: **(ولو أَمَرَهُ أَنْ يَضَعَ إبْراهيمَ في مكانٍ بعيدٍ عَنْهُمْ؛ لفعلَ، ولو أَمَرَهُ أَنْ يَرْفَعَهُ إلى السَّماءِ؛ لفعلَ)**

يعني كان قادراً على أن يُخلِّصه من النار بأي طريقة أرادها الله سبحانه وتعالى.

---

١- (٢١)

٢- [النجم: ٥]

قال: (وهذا كرجلٍ غنيٍ له مالٌ كثيرٌ يرى رجلاً مُحْتاجاً، فيعرضُ عليه أنْ يُقْرِضَهُ أوْ أنْ يَهَبَهُ شيئاً يَقْضي بهِ حاجَتَهُ؛ فيأبى ذلك المحتاجُ أنْ يَأْخُذَ، ويَصْبِرُ إلى أنْ يأتيه اللهُ برزقٍ لا مِنَّةَ فيه لأحَدٍ؛ فأين هذا من استغاثة العبادةِ والشِّرْكِ لو كانوا يفقهون)

إذاً هذه صورة ومسألة، وتلك مسألة أخرى مخالفة لها تماماً، خلافنا معكم ليس في هذه الصورة؛ أن تستغيث بحاضرٍ قادرٍ على الإغاثة؛ إشكالنا معكم أن تستغيثوا بالأموات الذين لا حول لهم ولا قوة؛ فتستغيثونهم كما يستغيث الموحد ربه تبارك وتعالى؛ هذه استغاثة عبادة وصرْفها لغير الله شرك.

قال رحمه الله: (ولنَخْتِمْ الكلامَ- إن شاء الله- بمسألةٍ عظيمةٍ مهمةٍ جداً، تُفْهَمُ مما تَقَدَّمَ)

ختم المؤلف الآن هذه الشبهات بمسألة عظيمة؛ فقال: (ولنختم الكلام إن شاء الله بمسألةٍ عظيمةٍ مهمةٍ جداً تفهم مما تقدم)؛ يعني: بإمكانك أن تفهمها من خلال ما قدَّمه من الإجابة على الشبهات السابقة.

قال: (ولكنْ نُفْرِدُ لها الكلامَ؛ لِعِظَمِ شَأْنِها، ولِكَثْرَةِ الغَلَطِ فيها؛ فنقولُ: لا خِلافَ أنَّ التَّوْحيدَ لابُدَّ أنْ يكونَ بالقلبِ واللسانِ والعَمَلِ)

توحيد بالقلب؛ أن تُقِرَّ بقلبك، وتُوَطِّنه على العلم والإيقان بأنه لا معبود بحقٍ إلا الله؛ فيستقر قلبك على هذا الاعتقاد، وباللسان تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وبالعمل أن تعبد الله وحده وأن تترك عبادة من سواه.

قال: (فإنِ اخْتَلَّ شيءٌ مِنْ هذا؛ لَمْ يكنِ الرَّجُلُ مُسْلِماً)

يعني سواء كان التوحيد القلبي أو التوحيد اللساني أو التوحيد العملي، إذا اختلَّ واحد من هذه الثلاث؛ لا يكون الرجل مسلماً.

قال: **(فإنْ عَرَفَ التَّوْحيدَ ولَمْ يَعْمَلْ به؛ فهو كافرٌ مُعانِدٌ كفرعون وإبليس وأمثالهما، وهذا يَغْلَطُ فيه كثيرٌ منَ النَّاسِ؛ يقولون: هذا حَقٌّ ونحنُ نَفْهَمُ هذا ونَشْهَدُ أَنَّهُ الحَقُّ؛ ولكننا لا نَقْدِرُ أنْ نَفْعَلَهُ)**

ماذا يعني؟ يعني التوحيد، يقول: نعم عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه من الأوثان ومن الأضرحة والأولياء وغيرها؛ هذا حق لا شك فيه، دعوتكم دعوة حق؛ لكنني أنا غير قادر على ترك عبادة غير الله سبحانه وتعالى والتقرب إلى الأضرحة والأولياء.

قال: **(ولا يجوزُ عِنْدَ أَهْلِ بَلَدِنا إلَّا مَنْ وافَقَهم، وغيرَ ذلك مِنَ الأَعْذارِ)**

يعني يقول: أهل البلد عندنا لا يُجَوِّزون أن تترك عبادة الأضرحة والتَّقرب إليها... إلى آخره؛ إذاً نحن على دينهم وعلى ما هم عليه، وإن كان يُقِرُّ في نفسه بأنه خطأ؛ فهل ينفعه إقراره هذا؟ هل ينفعه اعتقاده هذا دون ترك عبادة الأوثان؟ لا ينفعه، لا ينفعه حتى يترك هذه الأوثان.

قال: (وغير ذلك من الأعذار) يعني يقدم لنفسه أعذاراً كثيرة؛ فمثل هذا لا ينفعه عند الله سبحانه وتعالى؛ فالواجب على المرء أن يلتمس رضا الله عز وجل ولو سخط الناس عليه، وألا يتّبع رضا الناس.

طبعاً هذا موجود في الناس وبكثرة للأسف؛ تجد الشخص منهم يُقِرُّ ويعتقد بالحق ويصدِّقه ويعرفه؛ لكنه لا يتبعه ويتركه؛ لماذا؟ لإرضاء الناس، كما حصل من هرقل؛ هرقل عرف الحق وعرف نبوة النبي ﷺ وأخبر أبا سفيان بأنه عرف وفهم كل شيء، وقال: لو أنني أستطيع أن أخلص إلى النبي ﷺ لغسلت عن قدميه ولفعلت وفعلت، أقَرّ؛ لكن في النهاية ما أراد أن يؤمن، امتنع عن الإيمان لأنه خشي على مُلْكه، خشي

على دنياه نسأل الله العافية والسلامة، وهنا كثيرٌ من الناس يقول لك: نعم ما أنتم عليه حق لكنني وجدت آبائي على شيء وأنا أسير على طريقتهم، وقومي يمشون على طريقة لا أستطيع ان أخرج عن طريقتهم؛ كما كان صناديد الكفار يقولون: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ}[1]، هؤلاء ما يهمهم الحق؛ الذي يهمهم هو أن يَبقوا على تراث آبائهم؛ لذلك كان كفار قريش يقولون: سَفَّه أحلامنا وسَبَّ آلهتنا ويريدنا أن نترك دين آباءنا، هذا ما كان يقوله كفار قريش، وإلَّا؛ فهم يعرفون أنه حق من عند الله سبحانه وتعالى.

قال: **(ولم يَدْرِ المِسكينُ أنَّ غالبَ أئمة الكُفْرِ يَعْرفونَ الحَقَّ)**

{وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا}[2] حتى فرعون وقومه وحتى غيرهم من الصناديد، إبليس ألم يعرف الحق؟ عرف إبليس الحق؛ ولكنه كفر؛ أبى أن ينقاد لأمر الله سبحانه وتعالى واستكبر؛ فكفر، كذلك فرعون وغيرهم من الأمم، عرفوا الحق وتَبيَّن لهم بشكل واضح؛ لكنهم أبوا أن ينقادوا له.

قال: **(ولمْ يَتْركوهَ إلَّا لشيءٍ مِنَ الأعْذارِ)**

يعني قدَّموا لأنفسهم أعذاراً، كل واحد يضع لنفس عذراً حتى لا يتّبع الحق، فالعذر الذي تقدمه لنفسك؛ هذا ليس عذراً، لا ينفعك عند الله سبحانه وتعالى.

---

١- [الزخرف: ٢٢]

٢- [النمل: ١٤]

قال: (كما قال تعالى: {اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا}[1] وغير ذلك من الآيات كقوله: {يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ}[2].

فإنْ عَمِلَ بالتَّوْحيدِ عَمَلاً ظاهِراً، وهو لا يَفْهَمُهُ أوْ لا يَعْتَقِدُهُ بقَلْبِهِ؛ فهو مُنافِقٌ)

هذا الآن عكس الأول؛ الأول يعلم أنه حق ولكنه لم ينقد له ولم يعمل به وبقي على شركه، وهذا لا ينفعه عند الله سبحانه وتعالى؛ وأما الثاني فأظهر أنه على التوحيد وترك عبادة الأوثان... إلى آخره، لكن لا يعتقد بقلبه؛ هذا منافق.

قال: (وهو شَرٌّ مِنَ الكافِرِ الخالِصِ؛ لقوله تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ}[3])

فهم أسوأ حالاً من الكفار الأصليين؛ لأنهم يخدعون؛ يحاولون خداع المسلمين ويظنون أنهم يخدعون الله سبحانه وتعالى، والله خادعهم.

قال: (وهذه المسألة كبيرة طويلةٌ، تتبيَّن لك إذا تأمَّلتَها في ألْسِنَةِ النَّاسِ)

ما هي المسألة؟ هي أن الشخص يعتقد الحق ويعرفه؛ لكنه لا ينقاد له ولا يعمل به، فلابد من العمل بالتوحيد وليس فقط مجرد نطق باللسان أو اعتقاد بالقلب؛ لا بد من العمل به، فلا بد أن يجتمع عندك اعتقاد التوحيد ونطق بالتوحيد والعمل بالتوحيد؛ هكذا تكون موحداً، واحذر من التماس الأعذار لنفسك- الأعذار الواهية- احذر من ذلك.

---

١- [التوبة: ٩]

٢- [البقرة: ١٤٦]

٣- [النساء: ١٤٥]

قال: (وهذه المسألة كبيرةٌ طويلةٌ تتبيَّن لك اذا تأملتها في ألسنة الناس)؛ تجد الناس عندهم أخطاء كبيرة إما في التوحيد أو حتى في طاعة الله سبحانه وتعالى أو في ارتكاب البدع، وتأتي تكلمهم؛ يلتمسون الأعذار لأنفسهم؛ كثير من الناس هكذا، وأمر التوحيد أعظم شيء.

قال: **(ترى مَنْ يَعْرِفِ الحَقَّ ويتركَ العَمَلَ به؛ لخوفِ نقصِ دُنيا أو جاهٍ أوْ مُداراةٍ لأحَدٍ، وترى من يعملُ به ظاهراً لا باطناً، فإذا سألتَهُ عَمَّا يَعْتَقِدُ بقلبِهِ؛ فإذا هوَ لا يَعْرِفُهُ.**

**ولكنْ عليكَ بِفَهْمِ آيتين مِنْ كتاب الله؛**

**أوُلاهما قوله تعالى: {لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}، فإذا تَحَقَّقْتَ أَنَّ بَعْضَ الصَّحابَةِ الذين غزوا الرُّومَ معَ رسولِ الله ﷺ كفروا بِسَبَبِ كلمةٍ قالوها على وَجْهِ المَزْحِ واللعِبِ؛ تَبَيَّنَ لكَ أنَّ الذي يَتَكَلَّمُ بالكفرِ أوْ يَعْمَلُ بهِ، خَوْفاً مِنْ نقصِ مالٍ أو جاهٍ أو مُداراةٍ لأحدٍ؛ أعظمُ مِمَّنْ يَتَكلَّمُ بِكَلِمَةٍ يمزحُ بها)**

طبعاً الذين تكلموا بهذه الكلمة، وجاء فيهم: {قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} هؤلاء كانوا من المنافقين وليسوا من الصحابة الخيّرين، ولعل قصْد المؤلف هنا ببعض الصحابة أنهم الذين كانوا مع النبي ﷺ وليسوا الصحابة الذين لهم شرف الصحبة، هؤلاء كانوا من المنافقين فيما ذكر أهل التفسير، وقوله: {لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ}؛ أي: أظهرتم كفركم، وإن كانوا هم منافقون في الباطن كفار؛ لكن أظهروا كفرهم بهذا العمل الذي عملوه، فهؤلاء قد كفروا بكلمة؛ يعني: أظهروا كفرهم بكلمةٍ يمزحون بها.

قال: (فإذا تحققت من أن هؤلاء كفروا بسبب كلمة قالوها على وجه المزح واللعب؛ تبين لك أنَّ الذي يتكلم بالكفر أو يعمل به خوفاً من نقص مالٍ أو جاهٍ أو مداراة لأحد؛ أعظم ممن يتكلم بكلمةٍ يمزح) يعني هؤلاء تكلموا بألسنتهم كلمة كفر وكفروا بها؛ كفروا بها الكفر الظاهر، ونحن ذكرنا أنهم هم منافقون؛ يعني الكفر الباطن موجود؛ لكن كانوا في ظاهر أمرهم من المؤمنين- من المسلمين- لكن لمّا نطقوا بهذه الكلمة، هذا كفرٌ ظاهر؛ فأظهروا الكفر، وهؤلاء الذين كفروا بهذه الكلمة- التي هي كلمة مزاح- أعظم منهم الذي يكفر جادّاً؛ يكفر كفراً جديّاً يريده بقلبه من أجل خوف فوات شيءٍ من الدنيا من مالٍ أو جاه أو مداراةٍ لأحد؛ لا شكَّ أنَّ هذا كفره أعظم من ذاك.

الشاهد الذي يريده المؤلف من هذا، أن العمل- هذا العمل بالتوحيد- مهم جداً، وأنَّك حتى لو كنت في قلبك موحداً؛ إلا أن عملك شِرْك؛ فلا ينفعك توحيد قلبك.

قال: **(والآية الثانية قوله تعالى: {مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ}[1]؛ فلمْ يَعْذُرْ اللهُ مِنْ هؤلاءِ إلَّا مَنْ أُكْرِهَ معَ كَوْنِ قلبِهِ مُطْمَئِناً بالإيمانِ، وأمَّا غيرُ هذا؛ فَقَدْ كَفَرَ بَعْدَ إيمانِهِ؛ سواءٌ فَعَلَهُ خَوْفاً أوْ مُداراةً أو مشحةً بِوَطَنِهِ أو أهْلِهِ أو عَشيرتِهِ أو مالِهِ أو فعلهُ على وَجْهِ المَزْحِ أو لغيرِ ذلك من الأغراضِ؛ إلا المُكْرَهُ)**

يعني هنا لما قال الله سبحانه وتعالى: {مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ} لم يعذر بقية أصحاب الأعذار الواهية؛ إنما عذر المُكرَه؛ فلذلك لا تأتي بأعذارٍ واهية وتجعلها حجةً لك على عدم العمل بالتوحيد.

---

١- [النحل: ١٠٦- ١٠٧]

فقال: (فلم يعذر الله من هؤلاء إلا من أُكره مع كون قلبه مطمئناً بالإيمان، وأما غير هذا؛ فقد كفر بعد ايمانه)؛ يعني أعذاره ما نفعته.

قال: **(فالآية تدلُّ على هذا من جهتين؛ الأولى قوله: {إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ}؛ فلمْ يَسْتَثْنِ اللهُ تعالى إلا المُكْرَه، ومَعْلومٌ أنَّ الإنسان لا يُكْرَهُ إلا على الكلامِ أوِ الفعلِ، وأمَّا عقيدةُ القَلْبِ؛ فلا يُكْرَهُ عليها أحَدٌ)**

يعني ذلك: قال الله سبحانه وتعالى قلبه مطمئنٌ بالإيمان؛ فيبقى الإيمان في القلب مطمئناً، أما أن يقول قولاً أو أن يفعل فعلاً؛ فيمكن أن يكون مكرهاً في هذه الحالة، والإكراه هذا عذرٌ مقبولٌ عند الله سبحانه وتعالى، أمّا العذر بالخوف على دنيا تفوته أو من باب المزاح أو ما شابه؛ فلا؛ هذه أعذار واهية غير مقبولة.

قال: **(والثانيةُ قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ} فَصَرَّحَ أَنَّ هذا الكُفْرَ والعذابَ لَمْ يكنْ بِسَبَبِ الاعْتِقادِ أو الجَهْلِ أوْ البُغْضِ للدينِ أوْ مَحَبَّةِ الكُفْرِ، وإنَّما سَبَبُهُ أَنَّ لهُ في ذلك حَظّاً مِنْ حُظوظِ الدُّنيا؛ فآثَرَهُ على الدِّينِ، والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على نبينا محمدٍ واله وصحبه وسلم)**

إذاً بعض الناس يكفر لأنه يحب الكفر ويعجبه وينشرح قلبه به، وبعض الناس يكفر لأجل الدنيا؛ لمالٍ أو جاهٍ أو رئاسة وغير ذلك، فلا تُقدِّم لنفسك أعذاراً كي لا تعمل بالتوحيد وتقع في الشِّرك؛ هذه الأعذار كلها واهية وباطلة؛ اللهم إلا عذر الاكراه؛ هذا قد عذر الله سبحانه وتعالى به.

والله أعلم. والحمد لله.